

ويجلبوا بساحته [وهذه الأمور لو قارنها بالإيمان وبنيت عليه لأنتمرت الرقي العالي، والحياة الطيبة، ولكنها لما بني كثير، منها على الإلحاد لم تثمر إلا هبوط الأخلاق وأسباب الفناء والتدمير]<sup>(١)</sup>.

﴿٨ - ١٠﴾ أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس ببقاء ربهم لكافرون \* أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون \* ثم كان عاقبة الذين أسأوا السواى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن ﴿١٠﴾ أي: أفلم يتفكر هؤلاء المكذبون لرسول الله ولقائه ﴿١١﴾ في أنفسهم ﴿١٢﴾ فإن في أنفسهم آيات يعرفون<sup>(٧)</sup> بها، أن الذي أوجدتهم من العدم، سيعيدهم بعد ذلك، وأن الذي نقلهم أطواراً من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى آدمي، قد نفخ فيه الروح، إلى طفل، إلى شاب، إلى شيخ، إلى هرم، غير لائق أن يتركهم سدى مهملين، لا يهون ولا يؤمرون، ولا يثابون ولا يعاقبون.

﴿ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ ﴿أي﴾ ليلوكم أيكم أحسن عملاً. ﴿وأجل مسمى﴾ أي: مؤقت بقاءهما إلى أجل تنقضي به الدنيا، ونجى به القيامة، وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات.

﴿وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون﴾ فلذلك لم يستعدوا للقاءه، ولم يصدقوا رسله التي أخبرت به، وهذا الكفر عن غير دليل، بل الأدلة القاطعة، قد دلت على البعث والجزاء،

أسباب وجوده، ويتيقنون عدم الأمر الذي لم يشاهدوا له من الأسباب مقتضية لوجوده شيئاً، فهم واقفون مع الأسباب، غير ناظرين إلى مسببها، المتصرف فيها.

﴿وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ قد توجهت قلوبهم وأهواؤهم وإراداتهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها، فعملت لها وسعت، وأقبلت بها وأدبرت، وغفلت عن الآخرة، فلا الجنة تشتاق إليها، ولا النار تخافها وتخشاها، ولا المقام بين يدي الله ولقائه يروعها ويزعجها، وهذا علامة الشقاء، وعنوان الغفلة عن الآخرة.

ومن العجب أن هذا القسم من الناس، قد بلغت بكثير منهم الفطنة والذكاء في ظاهر الدنيا، إلى أمر يجير العقول ويدهش الألباب.

وأظهروا من العجائب الذرية<sup>(٨)</sup> والكهربائية، والمراكب البرية والبحرية والهوائية، ما فاقوا به وبرزوا، وأعجبوا بعقولهم، ورأوا غيرهم عاجزاً عما أقدرهم الله عليه، فنظروا إليهم بعين الاحتقار والازدراء، وهم مع ذلك، أبلد الناس في أمر دينهم، وأشدهم غفلة عن آخرتهم، وأقلهم معرفة بالعواقب، قد رأهم أهل البصائر النافذة، في جهلهم يتخبطون، وفي ضلالهم يعمهون، وفي باطلهم يترددون<sup>(٩)</sup>. نسوا الله فأنساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون.

ثم<sup>(١٠)</sup> نظروا إلى ما أعطاهم الله وأقدرهم عليه، من الأفكار الدقيقة في الدنيا وظاهرها، و[ما] حرموا من العقل العالي، فعرفوا<sup>(١١)</sup> أن الأمر لله، والحكم له في عباده، وإن هو إلا توفيقه وحذلانه، فخافوا<sup>(١٢)</sup> ربهم وسألوه أن يتم لهم ما وهبهم، من نور العقول والإيمان، حتى يصلوا إليه،



لا يدخل في الحساب.

﴿وعد الله لا يخلف الله وعده﴾ فتيقنوا ذلك، واجزموا به، واعلموا أنه لا بد من وقوعه.

فلما نزلت هذه الآيات، التي فيها هذا الوعد، صدق بها المسلمون، وكفر بها المشركون، حتى تراهن بعض المسلمين وبعض المشركين على مدة ستين عينوها، فلما جاء الأجل، الذي ضربه الله، انتصر الروم على الفرس، وأجلوهم من بلادهم التي أخذوها منهم، وتحقق وعد الله.

وهذا من الأمور الغيبية التي أخبر بها الله قبل وقوعها، ووجدت في زمان من أخبرهم الله بها، من المسلمين والمشركين. ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أن ما وعد الله به حق، فلذلك يوجد فريق منهم يكذبون بوعد الله، ويكذبون آياته، وهؤلاء الذين لا يعلمون، أي: لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها، وإنما يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ﴿فينظرون إلى الأسباب، ويميزمون بوقوع الأمر الذي في رأيهم اعتقدت

(٧) كذا في ب، وفي أ: يعرف.

(٨) في ب: عدلت إلى: لعرفوا.

(٩) في ب: عدلت إلى ولخافوا.

(١٠) زيادة من هامش ب، لم يتضح أولها وقد نقلته من طبعة السلفية.

(١) كذا في ب، وفي أ: النارية.

(٢) كذا في ب، وفي أ: يتردون.

(٣) هكذا في النسخين، وقد شطبت الكلمة في ب، وجعل بدلها (ولو).



ويردون القيامة عياناً، يومئذ ﴿يبلس المجرمون﴾ أي: يأسون من كل خير. وذلك أنهم ما قدموا لذلك اليوم إلا الإجمام، وهي الذنوب، من كفر وشرك ومعاصي، فلما قدموا أسباب العقاب، ولم يخلطوها بشيء من أسباب الشواب، أيسوا وأبلسوا وأفلسوا، وضل عنهم ما كانوا يفترونه، من نفع شركائهم، وأنهم يشفعون لهم، ولهذا قال: ﴿ولم يكن لهم من شركائهم﴾ التي عبدوها مع الله ﴿شفعاء وكانوا﴾ بشركائهم كافرين ﴿تبرأ المشركون ممن أشركوهم مع الله، وتبرأ العابدون، وقالوا: ﴿تبرأنا إليك ما كنا نولانا يعبدون﴾ والتعنوا وابتعدوا، وفي ذلك اليوم يفترق أهل الخير والشر، كما افترقت أعمالهم في الدنيا.

﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ آمنوا بقلوبهم، وصدقوا ذلك بالأعمال الصالحة ﴿فهم في روضة﴾ فيها سائر أنواع النبات وأصناف المشتبهات، ﴿يجيرون﴾ أي: يسرون، وينعمون بالمأكل اللذيذة، والأشربة، والخور الحسان، والخدم، والولدان، والأصوات المطربات، والسماع المشجي، والمناظر العجيبة، والروائح الطيبة، والفرح والسرور، واللذة والخبور، مما لا يقدر أحد أن يصفه.

﴿١٦﴾ ﴿وأما الذين كفروا﴾ وجحدوا نعمه، وقابلوها بالكفر ﴿وكذبوا بآياتنا﴾ التي جاءتهم بها رسلنا ﴿فأولئك في العذاب محضرون﴾ فيه، قد أحاطت بهم جهنم من جميع جهاتهم، وأطلع العذاب الأليم على أفئدتهم، وشوى الحميم وجوههم وقطع أمعاءهم، فأين الفرق بين الفريقين، وأين التساوي بين المنعمين والمعذبين!!

﴿١٧ - ١٩﴾ ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون﴾ وله الحمد

ولهذا نههم على السير في الأرض، والنظر في عاقبة الذين كذبوا رسلهم وخالفوا أمرهم، ممن هم أشد من هؤلاء قوة، وأكثر آثاراً في الأرض، من بناء قصور ومصانع، ومن غرس أشجار، ومن زرع وإجراء أنهار، فلم تغن عنهم قوتهم، ولا نفعهم آثارهم، حين كذبوا رسلهم الذين جاؤوهم بالبينات الدالات على الحق، وصحة ما جاؤوهم به، فإنهم حين ينظرون في آثار أولئك، لم يجدوا إلا أعماً يائسة، وخلقاً مهلكين، ومنازل بعدهم موحشة، وذم من الخلق عليهم متتابع. وهذا جزاء معجل، نموذج للجزاء الأخروي ومبتدأ له.

وكل هذه الأمم المهلكة، لم يظلمهم الله بذلك الإهلاك، وإنما ظلموا أنفسهم، وتسيبوا في هلاكها.

﴿ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوء﴾ أي: الحالة السيئة الشنيعة، وصار ذلك داعياً لهم لأن ﴿كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن﴾ فهذا عقوبة لسؤتهم وذنوبهم.

ثم ذلك الاستهزاء والتكذيب، يكون سبباً لأعظم العقوبات وأعضل المثالات.

﴿١١ - ١٦﴾ ﴿الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون﴾ \* ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون \* ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين \* ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون \* فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يجيرون \* وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون \* يخبر تعالى أنه المتفرد بإبداء المخلوقات، ثم يعيدهم، ثم إليه يرجعون بعد إعادتهم، ليجازيهم بأعمالهم، ولهذا ذكر جزاء أهل الشر، ثم جزاء أهل الخير، فقال: ﴿ويوم تقوم الساعة﴾ أي: يقوم الناس لرب العالمين،

في السماوات والأرض وعشياً وحين تظهرون \* يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون \* هذا إخبار عن تنزعه عن السوء والنقص، وتقده عن أن يماثله أحد من الخلق، وأمر للعباد أن يتحوه حين يمسون وحين يصبحون، ووقت العشي، ووقت الظهيرة.

فهذه الأوقات الخمسة، أوقات الصلوات الخمس، أمر الله عباده بالتسبيح فيها والحمد، ويدخل في ذلك، الواجب منه، كالمشتملة عليه الصلوات الخمس، والمستحب، كأذكار الصباح والمساء وأدبار الصلوات، وما يقترن بها من النوافل، لأن هذه الأوقات التي اخترها الله [الأوقات المفروضات هي] أفضل من غيرها [فالتسبيح والحمد فيها والعبادة فيها أفضل من غيرها] <sup>(١)</sup> بل العبادة، وإن لم تشتمل على قول «سبحان الله» فإن الإخلاص فيها تنزيه لله بالفعل، أن يكون له شريك في العبادة، أو أن يستحق أحد من الخلق ما يستحقه من الإخلاص والإنابة.

﴿يخرج الحي من الميت﴾ كما يخرج

وكمال حكمته، لما فيها من الإتيان، وسعة علمه، لأن الخالق لا بد أن يعلم ما خلقه ﴿ألا يعلم من خلق﴾ وعموم رحمته وفضله، لما في ذلك من المنافع الجليلة، وأنه المرید، الذي يختار ما يشاء، لما فيها من التخصيصات والمزايا، وأنه وحده، الذي يستحق أن يعبد ويوحد، لأنه المنفرد بالخلق، فيجب أن يفرد بالعبادة، فكل هذه أدلة عقلية، نبه الله العقول إليها، وأمرها بالتفكير واستخراج العبرة منها.

﴿و﴾ كذلك في ﴿اختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾ على كثرتكم وتباينكم مع أن الأصل واحد، وغارج الحروف واحدة، ومع ذلك لا تجمد صوتين متفقين من كل وجه، ولا لوتين متشابهين من كل وجه، إلا وتجد من الفرق بين ذلك ما به يحصل التمييز.

وهذا دال على كمال قدرته، ونفوذ مشيئته.

﴿و﴾ [من] ﴿عنايته بعباده ورحمته بهم، أن قدر ذلك الاختلاف، لثلا يقع التشابه فيحصل الاضطراب، ويفوت كثير من المقاصد والمطالب.

﴿٢٣﴾ ﴿ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغواكم من فضله﴾ إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴿أي: سماع تدبر وتعقل للمعاني والآيات في ذلك. إن ذلك دليل على رحمة الله تعالى،

كما قال: ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ وعلى تمام حكمته، إذ حكمته اقتضت سكون الخلق في وقت، ليستريحوا به ﴿٤﴾ ويستجموا ﴿٥﴾، وانتشارهم في وقت، لمصالحهم الدينية والدنيوية، ولا يتم ذلك إلا بتعاقب الليل والنهار عليهم، والمنفرد بذلك، هو المستحق للعبادة.

﴿٢٤﴾ ﴿ومن آياته يريكم البرق

عظمته، ونفوذ مشيئته، وقوة اقتداره، وجميل صنعه، وسعة رحمته وإحسانه، فقال: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب﴾ وذلك بخلق أصل النسل، آدم عليه السلام، ﴿ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ [أي: الذي خلقكم من أصل واحد ومادة واحدة] ﴿١﴾ وبشك في أقطار الأرض [وأرجائها] ففي ذلك آيات على أن الذي أنشأكم من هذا الأصل وبشك في أقطار الأرض] ﴿٢﴾ هو الرب العبود، الملك المحمود، والرحيم الودود، الذي سيعيدكم بالبعث بعد الموت.

﴿ومن آياته﴾ الدالة على رحمته وعنايته بعباده، وحكمته العظيمة، وعلمه المحيط، ﴿أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ تناسبكم وتناسبونهم، وتشاكلكم وتشاكلونهم، ﴿لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ بما رتب على الزواج من الأسباب الجالبة للمودة والرحمة.

فحصل بالزوجة الاستمتاع واللذة، والمنفعة بوجود الأولاد وتربيتهم، والسكون إليها، فلا تجد بين أحد في الغالب، مثل ما بين الزوجين من المودة والرحمة، ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ يُعملون أفكارهم، ويتدبرون آيات الله، وينتقلون من شيء إلى شيء.

﴿٢٢﴾ ﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾ إن في ذلك لآيات للعالمين ﴿والعالمون﴾ هم أهل العلم، الذين يفهمون العبر، ويتدبرون الآيات. والآيات في ذلك كثيرة: فمن آيات خلق السماوات والأرض وما فيهما، أن ذلك دال على عظمة سلطان الله وكمال اقتداره، الذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة،



النبات من الأرض الميتة، والسنبلة من الحبة، والشجرة من التواة، والفرخ من البيضة، والمؤمن من الكافر، ونحو ذلك.

﴿ويخرج الميت من الحي﴾ يعكس المذكور ﴿ويحيي الأرض بعد موتها﴾ فينزل عليها المطر وهي ميتة هامدة، فلذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ﴿وكذلك تخرجون﴾ من قبوركم.

فهذا دليل قاطع، وبرهان ساطع، أن الذي أحيا الأرض بعد موتها، فإنه يحيي الأموات، فلا فرق في نظر العقل بين الأمرين، ولا موجب لاستبعاد أحدهما مع مشاهدة الآخر.

﴿٢٠﴾ - ﴿٢١﴾ ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ \* ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴿هذا شروع في تعداد آياته الدالة على انفرادة بالإنهية، وكمال

(١) زيادة بخط المؤلف من هامش أ.

(٢) زيادة من ب.

(٣) زيادة يقتضيه السياق.

(٤) زيادة من أ.

(٥) الكلمة غير واضحة في النسختين وكأنها (ويجموا) وقد زيد عليها في نسخة ب حرفان فصارت يستجموا.

خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴿٢٥﴾ أي: ومن آياته، أن ينزل عليكم المطر، الذي نحيا به البلاد والعباد، ويريككم قبل نزوله مقدماته، من الرعد والبرق، الذي يخاف ويُطمع فيه.

﴿إن في ذلك لآيات﴾ [دالة] على عموم إحسانه، وسعة علمه، وكمال إتيقانه، وعظيم حكمته، وأنه يحيي الموتى، كما أحيا الأرض بعد موتها. ﴿لقوم يعقلون﴾ أي: لهم عقول، تعقل بها ما تسمعه، وتراه وتحفظه، وتستدل به على ما جعل دليلاً عليه.

﴿٢٥ - ٢٧﴾ ﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون \* وله من في السماوات والأرض كل له قانتون \* وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ أي: ومن آياته العظيمة، أن قامت السماوات والأرض واستقرتا، وثبتتا بأمره فلم تتزلزلا، ولم تسقط السماء على الأرض، فقدردته العظيمة، التي بها أمسك السماوات والأرض أن تزولا، يقدر بها أنه إذا دعا الخلق دعوة من الأرض، إذا هم يخرجون ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس﴾.

﴿وله من في السماوات والأرض﴾ الكل خلقه ومماليكه، المتصرف فيهم من غير منازع ولا معاون ولا معارض، وكلهم قانتون لجلاله، خاضعون لكماله.

﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو﴾ أي: الإعادة للخلق بعد موتهم ﴿أهون عليه﴾ من ابتداء خلقهم، وهذا بالنسبة إلى الأذهان والعقول، فإذا كان قادراً على الابتداء الذي تقرون به، كانت <sup>(١)</sup> قدرته على الإعادة التي أهون أولى وأولى.

ولما ذكر من الآيات العظيمة ما به

يعتبر المعتبرون، ويشكر المؤمنون ويتبصر المهتدون، ذكر الأمر العظيم والمطلب الكبير، فقال: ﴿وله المثل الأعلى في السماوات والأرض﴾ وهو كل صفة كمال، والكمال من تلك الصفة، والمحبة، والإنابة التامة الكاملة في قلوب عباده المخلصين، والذكر الجليل، والعبادة منهم. فالمثل الأعلى، هو وصفه الأعلى، وما ترتب عليه.

ولهذا كان أهل العلم يستعملون في حق الباري قياس الأولى، فيقولون: كل صفة كمال في المخلوقات، فخالقها أحق بالاتصاف بها، على وجه لا يشاركه فيها أحد، وكل نقص في المخلوق ينزه عنه، فتنزه الخالق عنه من باب أولى وأحرى.

﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي: له العزة الكاملة، والحكمة الواسعة، فعزته، أوجد بها المخلوقات وأظهر الأمور، وحكمته، أتقن بها ما صنعه وأحسن فيها ما شرعه.

﴿٢٨ - ٢٩﴾ ﴿ضرب لكم مثلاً﴾ من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون \* بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين﴾ هذا مثل ضربه الله تعالى، لقيح الشرك وتبجيه، مثلاً من أنفسكم، لا يحتاج إلى حل وترحال، وإعمال الجمال.

﴿هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم﴾ أي: هل أحد من عبيدكم وإمائكم الأرقاء يشارككم في رزقكم، وترون أنكم وهم فيه على حد سواء.

﴿تخافونهم كخيفتكم أنفسكم﴾ أي: كالأحرار الشركاء في الحقيقة، الذين يخاف من قسمه، واختصاص كل شيء بحاله؟

ليس الأمر كذلك، فإنه ليس أحد مما ملكت أيمانكم شريكاً لكم فيما

رزقكم الله تعالى.

هذا، ولستم الذين خلقتموهم ورزقتموهم، وهم أيضاً عماليك مثلكم، فكيف ترضون أن تجعلوا الله شريكاً من خلقه، وتعملونه بمنزلته، وعديلاً له في العبادة، وأنتم لا ترضون مساواة عماليكم لكم؟

هذا من أعجب الأشياء، ومن أدل شيء على [سفه] <sup>(٢)</sup> من اتخذ شريكاً مع الله، وأن ما اتخذ باطل مضمحل، ليس مساوياً لله، ولا له من العبادة شيء.

﴿كذلك نفصل الآيات﴾ بتوضيحها بأمثلتها ﴿لقوم يعقلون﴾ الخفائق ويعرفون، وأما من لا يعقل، فلو فصلت له الآيات، وبيّنت له البيّنات، لم يكن له عقل يبصر به ما تبين، ولا لب يعقل به ما توضح، فأهل العقول والألباب، هم الذين يساق إليهم الكلام، ويوجه الخطاب.

وإذا علم من هذا المثال، أن من اتخذ من دون الله شريكاً بعينه ويتوكل عليه في أموره، فإنه ليس معه من الحق شيء، فما الذي أوجب له الإقدام على أمر باطل، توضح له بطلانه وظهر برهانه؟ [لقد] <sup>(٣)</sup> أوجب لهم ذلك اتباع الهوى، فلماذا قال: ﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم﴾ هويت أنفسهم الناقصة، التي ظهر من نقصانها ما تعلق به هواها، أمراً يجزم العقل بفساده، والفطر برده، بغير علم دلهم عليه، ولا برهان قادهم إليه.

﴿فمن يهدي من أضل الله﴾ أي: لا تعجبوا من عدم هدايتهم، فإن الله تعالى أضلهم بظلمهم، ولا طريق لهداية من أضل الله، لأنه ليس أحد معارضاً لله، أو منازعاً له في ملكه.

﴿وما لهم من ناصرين﴾ ينصرونهم حين تحق عليهم كلمة العذاب، وتقطع بهم الوصل والأسباب.

﴿٣٠ - ٣٢﴾ ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم

(٣) زيادة من: ب.

(٢) زيادة من: ب.

(١) في النسخين: كان.

وباطل، فيكونون مشاهين بذلك للمشركين في التفرق، بل الدين واحد، والرسول واحد، والآله واحد.

وأكثر الأمور الدينية، وقع فيها الإجماع بين العلماء والأئمة، والأخوة الإيمانية، قد عقدها الله وربطها أتم ربط، فما بال ذلك كله يُلغى، ويُنسى التفرق والشقاق بين المسلمين على مسائل خفية، أو فروع خلافية، يضل بها بعضهم بعضاً، ويتميز بها بعضهم عن بعض؟

فهل هذا إلا من أكبر نزغات الشيطان وأعظم مقاصده، التي كادها للمسلمين؟

وهل السعي في جمع كلمتهم، وإزالة ما بينهم من الشقاق، المبني على ذلك الأصل الباطل، إلا من أفضل الجهاد في سبيل الله، وأفضل الأعمال المقربة إلى الله؟

ولما أمر تعالى بالإنيابة إليه - وكان الأمور بها، هي الإنيابة الاختيارية، التي تكون في حالي العسر واليسر، والسعة والضيق - ذكر الإنيابة الاضطرارية، التي لا تكون مع الإنسان إلا عند ضيقه وكرهه، فإذا زال عنه الضيق، نبذها وراء ظهره، وهذه غير نافعة، فقال:

﴿٣٣- ٣٥﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يَشْرِكُونَ \* لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ \* أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يَشْرِكُونَ﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ مَرَضٌ، أَوْ خَوْفٌ مِنْ هَلَاكٍ، وَنَحْوَهُ. دَعَا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَنَسُوا مَا كَانُوا بِهِ يَشْرِكُونَ فِي تِلْكَ الْحَالِ، لَعَلَّهُمْ أَنَّهُ لَا يَكْشِفُ الضَّرَّ إِلَّا اللَّهُ.﴾

﴿ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً شَفَاهُمْ مِنْ مَرَضِهِمْ، وَأَمْنَهُمْ مِنْ خَوْفِهِمْ، إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَنْفَضُونَ تِلْكَ الْإِنَابَةَ

الناس لا يعلمون﴾ فلا يعرفون الدين القيم، وإن عرفوه لم يسلكوه.

﴿منيبين إليه واتقوه﴾ وهذا تفسير لإقامة الوجه للدين، فإن الإنيابة إنيابة القلب وانجذاب دواعيه لمراضي الله تعالى.

ويلزم من ذلك، حمل <sup>(٢)</sup> البدن بمقتضى ما في القلب، فشمّل ذلك العبادات الظاهرة والباطنة، ولا يتم ذلك إلا بترك المعاصي الظاهرة والباطنة، فلذلك قال: ﴿واتقوه﴾ فهذا يشمل فعل المأمورات وترك المنهيات. وخص من المأمورات الصلاة، لكونها تدعو إلى الإنيابة والتقوى، لقوله تعالى: ﴿وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ فهذا إيعانته على التقوى.

ثم قال: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ فهذا حثها على الإنيابة.

وخص من المنهيات أصلها، والذي لا يقبل معه عمل، وهو الشرك، فقال: ﴿ولا تكونوا من المشركين﴾ لكون الشرك مضاداً للإنيابة، التي روحها الإخلاص من كل وجه.

ثم ذكر حالة المشركين مهجناً لها ومقبحاً، فقال: ﴿من الذين فرقوا دينهم﴾ مع أن الدين واحد، وهو إخلاص العبادة لله وحده، وهؤلاء المشركون فرقوه، منهم من يعبد الأوثان والأصنام، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الأولياء والصالحين، ومنهم يهود، ومنهم نصارى.

ولهذا قال: ﴿وكانوا شيعاً﴾ أي: كل فرقة من فرق الشرك تألفت وتعصبت، على نصر ما معها من الباطل، ومنايذة غيرهم ومحاربتهم.

﴿كل حزب بما لديهم﴾ من العلوم المخالفة لعلوم الرسل ﴿فرحون﴾ به، يحكمون لأنفسهم بأنه الحق، وأن غيرهم على باطل، وفي هذا تحذير للمسلمين من تشتتهم وتفرقهم فرقاً، كل فريق يتعصب لما معهم من حق

ولكن أكثر الناس لا يعلمون \* منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين \* من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون﴾ يأمر تعالى بالإخلاص له في جميع الأحوال، وإقامة دينه، فقال: ﴿فأقم وجهك﴾ أي: انصبه ووجهه إلى الدين الذي هو الإسلام، والإيمان، والإحسان، بأن تتوجه بقلبك، وقصدك، وبدنك إلى <sup>(١)</sup> إقامة شرائع الدين الظاهرة، كالتصلاة، والزكاة، والصوم، والحج ونحوها. وشرائعه الباطنة، كالعبادة، والخوف، والرجاء، والإنيابة، والإحسان في الشرائع الظاهرة والباطنة، بأن تعبد الله فيها كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك.

وخص الله إقامة الوجه، لأن إقبال الوجه تبع لإقبال القلب، ويرتّب على الأمرين سَعْيُ البدن، ولهذا قال: ﴿حنيئاً﴾ أي: مقبلاً على الله في ذلك، معرضاً عمّا سواه.

وهذا الأمر الذي أمرناك به، هو ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ ووضع في عقولهم حسنها، واستباح غيرها، فإن جميع أحكام الشرع، الظاهرة والباطنة، قد وضع الله في قلوب الخلق كلهم، الميل إليها، فوضع في قلوبهم محبة الحق، وإيثار الحق، وهذا حقيقة الفطرة.

ومن خرج عن هذا الأصل، فلعارض عرض لفطرته أفسدها، كما قال النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

﴿لا تبديل لخلق الله﴾ أي: لا أحد يبدل خلق الله، فيجعل المخلوق على غير الوضع الذي وضعه الله. ﴿ذلك﴾ الذي أمرنا به ﴿الدين القيم﴾ أي: الطريق المستقيم الموصل إلى الله، وإلى كرامته، فإن من أقام وجهه للدين حنيئاً، فإنه سالك الصراط المستقيم، في جميع شرائعه وطرقه، ﴿ولكن أكثر

(١) كذا في ب، وفي أ: على.

(٢) في ب: عمل.





﴿بأمره﴾ القدري ﴿ولتبشروا من فضله﴾ بالتصرف في معاشكم ومصالحكم.

﴿ولعلمكم تشكرون﴾ من سخر لكم الأسباب، وسير لكم الأمور. فهذا المقصود من النعم، أن تقابل بشكر الله تعالى، ليزيدكم الله منها، ويبقيها عليكم.

وأما مقابلة النعم بالكفر والمعاصي، فهذه حال من بدل نعمة الله كفراً، ونعمته عنة، وهو معرض لها للزوال، والانتقال منه إلى غيره.

﴿٤٧﴾ ﴿ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ أي: ﴿ولقد أرسلنا من قبلك﴾ في الأمم السابقين ﴿رسلاً إلى قومهم﴾ حين جحدوا توحيد الله، وكذبوا بالحق، فجاءتهم رسالهم يدعونهم إلى التوحيد والإخلاص، والتصديق بالحق، وبطلان ما هم عليه من الكفر والضلال، وجاؤوهم بالبينات والأدلة على ذلك، فلم يؤمنوا، ولم يزولوا عن غيهم. ﴿فانقمنا من الذين أجرموا﴾ ونصرنا المؤمنين أتباع الرسل. ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ أي: أوجبنا ذلك على أنفسنا، وجعلناه من جملة الحقوق المتعينة ووعدهناهم به، فلا يد من وقوعه.

فأنتم أيها المكذبون لمحمد ﷺ، إن بقيتم على تكذيبكم، حلت بكم العقوبة، ونصرناه عليكم.

﴿٤٨ - ٥٠﴾ ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويعمله كسفاً فتري الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون﴾ \* وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين \* فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته، وتمام نعمته،

أنه ﴿يرسل الرياح فتثير سحاباً﴾ من الأرض، ﴿فيبسطه في السماء﴾ أي: يمدده ويوسعه ﴿كيف يشاء﴾ أي: على أي: حالة أرادها من ذلك، ثم ﴿يعمله﴾ أي: ذلك السحاب الواسع ﴿كسفاً﴾ أي: سحاباً ثخيناً، قد طبق بعضه فوق بعض.

﴿فتري الودق يخرج من خلاله﴾ أي: السحاب، نقطاً صغيراً متفرقة، لا تنزل جميعاً، فتفسد ما أتت عليه.

﴿فإذا أصاب به﴾ بذلك المطر ﴿من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون﴾ يبشر بعضهم بعضاً بنزوله، وذلك لشدة حاجتهم وضرورتهم إليه، فلهذا قال: ﴿وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين﴾ أي: آيسين قانطين لتأخر وقت مجيئه، أي: فلما نزل في تلك الحال، صار له موقع عظيم [عندهم]<sup>(١)</sup>، وفرح واستبشار.

﴿فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها﴾ فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج كريم.

﴿إن ذلك﴾ الذي أحيا الأرض بعد موتها ﴿لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير﴾ فقدرته تعالى، لا يتعاصى عليها شيء، وإن تعاصى على قدر خلقه، ودق عن أفهامهم، وحاترت فيه عقولهم.

﴿٥١ - ٥٣﴾ ﴿ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلوا من بعده يكفرون﴾ \* فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين \* وما أنت بهاد العمي عن ضلالهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾ يخبر تعالى

عن حالة الخلق، وأنها مع هذه النعم عليهم بإحياء الأرض بعد موتها، ونشر رحمة الله تعالى، لو أرسلنا على هذا النبات الناشئ عن المطر، وعلى زروعهم، ريحاً مضرّة متلفة أو منقصة، ﴿فرأوه مصفراً﴾ قد نداعى إلى التلّف ﴿لظلوا من بعده يكفرون﴾ فينسبون النعم الماضية، ويادرون إلى الكفر.

وهؤلاء، لا ينفع فيهم وعظ ولا

﴿فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء﴾ وبالأولى ﴿إذا ولوا مدبرين﴾ فإن الموانع قد توفرت فيهم عن الانقياد والسماع النافع، كتوفر هذه الموانع المذكورة عن سماع الصوت الحسي.

﴿وما أنت بهاد العمي عن ضلالهم﴾ لأنهم لا يقبلون الإبصار بسبب عماهم فليس منهم<sup>(٢)</sup> قابلة له.

﴿إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾ فهوؤلاء الذين ينفع فيهم إسماع الهدى، المؤمنون بآياتنا بقلوبهم، المتقادون لأوامرنا، المسلمون لنا، لأن معهم الداعي القوي لقبول النصائح والمواظب، وهو استعدادهم للإيمان بكل آية من آيات الله، واستعدادهم لتنفيذ ما يقدر عليهم من أوامر الله ونواهي.

﴿٥٤﴾ ﴿الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾ يخبر تعالى عن سعة علمه، وعظيم اقتداره، وكمال حكمته، ابتداء خلق آدميين من ضعف، وهو الأطوار الأول من خلقه، من نقطة إلى علقه إلى مضغة إلى أن صار حيواناً في الأرحام، إلى أن ولد، وهو في سن الطفولية، وهو إذ

(١) زيادة من: ب.

(٢) في ب: فيهم.





على سائر الأعمال، والزكاة التي تزكي صاحبها من الصفات الرذيلة، وتضع أخاه المسلم، وتسد حاجته، ويبين بها أن العبد يؤثر بحجة الله على محبة للمال، فيخرجه محبوبه من المال لما هو أحب إليه، وهو طلب مرضاة الله.

فـ ﴿أولئك﴾ هم المحسنون، الجامعون بين العلم التام والعمل ﴿على هدى﴾ أي: عظيم، كما يفيدته التنكير، وذلك الهدى حاصل لهم، وواصل إليهم ﴿من ربهم﴾ الذي لم يزل يريهم بالنعم، ويدفع عنهم النقم.

وهذا الهدى الذي أوصله إليهم، من تربيته الخاصة بأوليائه، وهو أفضل أنواع التربية. ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ الذين أدركوأرضاربههم، وثوابه الدنيوي والأخروي، وسلموا من سخطه وعقابه. وذلك لسلوكلهم طريق الفلاح، الذي لا طريق له غيرها.

ولما ذكر تعالى المهتدين بالقرآن، المقبلين عليه، ذكر من أعرض عنه، ولم يرفع به رأساً، وأنه عوقب على ذلك، بأن تعرض عنه كل باطل من القول، فترك أعلى الأقوال، وأحسن الحديث، واستبدل به أسفل قول وأقبحه، فلذلك قال:

﴿٦٩ - ٩﴾ ﴿ومن الناس من يشتري

(٥) زيادة من: ب.

(٦) زيادة من: ب.

المكارة، ويسر عليه كل عسير، واستقل من عمله كل كثير.

﴿ولا يستخفك الذين لا يوقنون﴾ أي: قد ضعف إيمانهم، وقل يقينهم، فخفت لذلك أحلامهم، وقل صبرهم، فإنيك أن يستخفك هؤلاء، فإنيك إن لم تجعلهم<sup>(١)</sup> منك على بال وتحذر منهم، وإلا استخفوك وحملوك على عدم الثبات على الأوامر والنواهي، والنفوس تساعدكم على هذا، وتطلب التشبه والموافقة<sup>(٢)</sup>، وهذا مما يدل على أن كل مؤمن موقن رزين العقل، يسهل عليه الصبر، وكل ضعيف اليقين ضعيف [العقل]<sup>(٣)</sup> خفيفه.

فالأول بمنزلة اللب، والآخر بمنزلة القشور. فإله المستعان.

### تفسير سورة لقمان وهي مكية

﴿١ - ٥﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ \* تلك آيات الكتاب الحكيم \* هدى ورحمة للمحسنين \* الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ يشير تعالى إشارة دالة على التعظيم إلى ﴿آيات الكتاب الحكيم﴾ أي: آياته محكمة، صدرت من حكيم خير.

من إحكامها، أنها جاءت بأجل الألفاظ وأفصحها وأبينها، الدالة على أجل المعاني وأحسنها.

ومن إحكامها، أنها محفوظة من التغيير والتبديل، والزيادة والنقص والتحريف.

ومن إحكامها: أن جميع ما فيها من الأخبار<sup>(٤)</sup> السابقة واللاحقة، والأمور الغيبية كلها، مطابقة للواقع، مطابق لها الواقع، لم يخالفها كتاب من الكتب الإلهية، ولم يخبر بخلافها نبي من الأنبياء أولم يأتي علم محسوس ولا معقول صحيح يناقض ما دلت

(١) كذا في ب وفي أ: تجعل.

(٢) كذا في ب وفي أ: والمرافقة.

(٣) زيادة من: ب.

(٤) في أ: الأحكام والصواب من: ب.

دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم \* هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين \* يتلو تعال على عباده آثاراً من آثار قدرته، ويدائع من بدائع حكيمته، ونعماً من آثار رحمته، فقال: ﴿خلق السماوات﴾ السبع، على عظمها، وسعتها، وكشافتها، وارتفاعها الهائل. ﴿بغير عمد ترونها﴾ أي: ليس لها عمد، ولو كان لها عمد لرؤيت، وإنما استقرت واستمسكت، بقدره الله تعالى.

﴿واللقى في الأرض رواسي﴾ أي: جبالاً عظيمة، ركزها في أرجائها وأنحائها، لثلاً، ﴿تعيد بكم﴾ فلولا الجياك الراسيات لمادت الأرض، ولما استقرت بساكنها.

﴿وبث فيها من كل دابة﴾ أي: نشر في الأرض الواسعة من جميع أصناف الدواب، التي هي مسخرة لبني آدم، ولصالحهم ومنافعهم. ولما بثها في الأرض، علم تعالى أنه لا بد لها من رزق تعيش به، فأنزل من السماء ماء مباركاً، ﴿فأنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ المنظر، نافع مبارك، فرعت فيه الدواب المنبثشة، وسكن إليه كل حيوان.

﴿هذا﴾ أي: خلق العالم العلوي والسفلي، من جماد، وحيوان، وسوق أرزاق الخلق إليهم. ﴿خلق الله﴾ وحده لا شريك له، كل مقر بذلك حتى أنتم يا معشر المشركين.

﴿فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾ أي: الذين جعلتموهم له شركاء، تدعونهم وتعبدونهم، يلزم على هذا، أن يكون لهم خلق كخلقه، ورزق كرزقه، فإن كان لهم شيء من ذلك فأروني، ليصح ما ادعيتهم فيهم من استحقاق العبادة.

ومن المعلوم أنهم لا يقدر أن يروه شيئاً من الخلق لها، لأن جميع المذكورات، قد أقروا أنها خلق الله وحده، ولا ثم شيء يعلم غيرها،

عن الحديث النافع، والعمل النافع، والحق المبين، والصراف المستقيم.

ولا يتم له هذا، حتى يقدم في الهدى والحق، ويتخذ آيات الله هزواً ويسخر بها وبمن جاء بها، فإذا جمع بين مدح الباطل والترغيب فيه، والقبح في الحق والاستهزاء به وبأهله، أضل من لا علم عنده، وخدعه بما يوحيه إليه من القول الذي لا يميزه ذلك الضال ولا يعرف حقيقته.

﴿أولئك لهم عذاب مهين﴾ بما ضلوا وأضلوا، واستهزؤوا [بآيات الله] <sup>(١)</sup> وكذبوا الحق الواضح، ولهذا قال: ﴿وإذا تتلى عليه آياتنا﴾ ليؤمن بها وينقاد لها، ﴿ولي مستكبراً﴾ أي: أدبر إيجاب مستكبر عنها، راد لها، ولم تدخل قلبه ولا أثرت فيه، بل أدبر عنها ﴿كأن لم يسمعها﴾ بل ﴿كأن في أذنيه وقرأ﴾ أي: صمماً لا تصل إليه الأصوات، فهذا لا حيلة في هدايته.

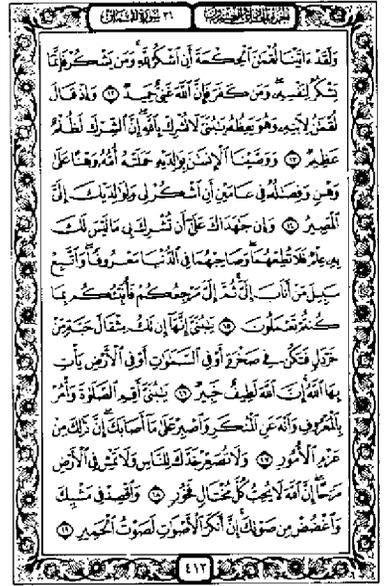
﴿قبشره﴾ بشارة تؤثر في قلبه الحزن والغم، وفي بشرته السوء والظلمة والغبرة. ﴿بعذاب أليم﴾ مؤلم لقلبه ولبدنه، لا يقادر قدره، ولا يدري بعظيم أمره، وهذه بشارة أهل الشر، فلا نعمت البشارة.

وأما بشارة أهل الخير فقال: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ جمعوا بين عبادة الباطن بالإيمان، والظاهر بالإسلام، والعمل الصالح.

﴿لهم جنات النعيم﴾ بشارة لهم بما قدموه، وقرئ لهم بما أسلفوه. ﴿خالدين فيها﴾ أي: في جنات النعيم، نعيم القلب والروح والبدن.

﴿وعهد الله حقاً﴾ لا يمكن أن يخلف ولا يغير ولا يتبدل. ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ كامل العزة، كامل الحكمة، من عزته وحكمته، وفق من وفق، وخذل من خذل، بحسب ما اقتضاه علمه فيهم وحكمته.

﴿١٠ - ١١﴾ ﴿خلق السماوات بغير عمد ترونها واللقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل



لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين \* وإذا تتلى عليه آياتنا ولي مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرأ قبشره بعذاب أليم \* إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم \* خالدين فيها وعهد الله حقاً وهو العزيز الحكيم

أي: ﴿ومن الناس من﴾ هو محروم مخذول ﴿يشترى﴾ أي: يختار ويرغب رغبة من يبذل الثمن في الشيء. ﴿لهو الحديث﴾ أي: الأحاديث الملهية للقلوب، الصادة لها عن أجل مطلوب. فدخل في هذا، كل كلام محرم، وكل لغو وباطل، وهذيان من الأقوال المرغبة في الكفر والفسوق والعصيان، ومن أقوال الرادين على الحق، المجادلين بالباطل ليدحضوا به الحق، ومن غيبة، ونميمة، وكذب، وشتم، وسب، ومن غناء ومزامير شيطان، ومن الماجريات الملهية، التي لا نفع فيها في دين ولا دنيا.

فهذا الصنف من الناس، يشتري لهو الحديث عن هدي الحديث ﴿ليضل﴾ الناس ﴿بغير علم﴾ أي: بعدما ضل بفعله، أضل غيره، لأن الإضلال ناشيء عن الضلال. وإضلاله في هذا الحديث، صده

الحقوق، فيسألك: هل قمت بها، فيثيبك الثواب الجزيل؟ أم ضيعتها، فيعاقبك العقاب الويل؟

ثم ذكر السبب الموجب لير الوالدين في الأم، فقال: ﴿حلتها أمه وهنأ على وهن﴾ أي: مشقة على مشقة، فلا تزال تلاقي المشاق، من حين يكون نطفة، من الوحى، والمرض، والضعف، والشغل، وتغير الحال، ثم وجع الولادة، ذلك الوجع الشديد.

ثم ﴿فصاله في عامين﴾ وهو ملازم لحضانه أمه وكفالتها ورضاعها، أفما يحسن بمن تحمل على ولده هذه الشدائد مع شدة الحب، أن يؤكد على ولده، ويوصي إليه بتمام الإحسان إليه؟

﴿وإن جاهداك﴾ أي: اجتهد والداك ﴿على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾ ولا تظن أن هذا داخل في الإحسان إليهما، لأن حق الله مقدم على حق كل أحد، و«لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

ولم يقل: «وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فعقهما»، بل قال: ﴿فلا تطعهما﴾ أي: بالشرك، وأما برهما، فاستمر عليه، ولهذا قال: ﴿وصاحبهما في الدنيا معروفا﴾ أي: صفة إحسان إليهما بالمعروف، وأما اتباعهما وهما بحالة الكفر والمعاصي، فلا تتبعهما.

﴿واتبع سبيل من أناب إلى﴾ وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله، المستسلمون لربهم، المنيبون إليه.

واتباع سبيلهم، أن يسلك مسلكتهم في الإنابة إلى الله، التي هي انجذاب دواعي القلب وإراداته إلى الله، ثم يتبعها سعي البدن، فيما يرضي الله ويقرب منه.

﴿ثم إلى موجهكم﴾ الطائع والمعاصي والنيب، وغيره ﴿فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾ فلا يخفى على الله من أعمالهم خافية.

(٥) زيادة من: ب.

أصول الحكمة وقواعدها الكبار، فقال: ﴿وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه﴾

أو قال له قولاً به يعظه بالأمر والنهي، المقرون بالترغيب والترهيب، فأمره بالإخلاص، ونهاه عن الشرك، وبيّن له السبب في ذلك فقال: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ ووجه كونه عظيماً، أنه لا أفضع وأبشع من سؤى المخلوق من تراب بمالك الرقاب، وسؤى الذي لا يملك من الأمر شيئاً بمن له الأمر كله، وسؤى الناقص الفقير من جميع الوجوه بالرب الكامل الغني من جميع الوجوه، وسؤى من لم يُنعم بمثقال ذرة [من النعم] <sup>(٣)</sup> بالذي ما بالخلق من نعمة في دينهم ودنياهم وأخراهم وقلوبهم وأبدانهم إلا منه، ولا يصرف السوء إلا هو، فهل أعظم من هذا الظلم شيء!!

وهل أعظم ظلماً ممن خلقه الله لعبادته وتوحيده، فذهب بنفسه الشريفة، [فجعلها في أخس المراتب] <sup>(٤)</sup> جعلها عابدة لمن لا يسوى شيئاً، فظلم نفسه ظلماً كبيراً.

ولما أمر بالقيام بحقه، بترك الشرك الذي من لوازمه القيام بالتوحيد، أمر بالقيام بحق الوالدين، فقال: ﴿ووصينا الإنسان﴾ أي: عهدنا إليه، وجعلناه وصية عنده، سنسأله عن القيام بها، وهل حفظها أم لا؟ فوصيناه ﴿بوالديه﴾ وقلنا له: ﴿اشكر لي﴾ بالقيام بعبوديتي وأداء حقوقي، وأن لا تستعين بتعمي على معصيتي، ﴿ولو اليك﴾ بالإحسان إليهما بالقول اللين، والكلام اللطيف، والفعل الجميل، والتواضع لهما [وإكرامهما] <sup>(٥)</sup> وإجلالهما، والقيام بمؤونتتهما، واجتناب الإساءة إليهما من كل وجه، بالقول والفعل.

فوصيناه بهذه الوصية، وأخبرناه أن ﴿إلى المصير﴾ أي: سترجع أيها الإنسان إلى من وصاك وكلفك بهذه

ثبتت عجزهم عن إثبات شيء لها تستحق به أن تعبد.

ولكن عبادتهم إياها عن غير علم وبصيرة، بل عن جهل وضلال، ولهذا قال: ﴿بئيل الظالمون في ضلال مبين﴾ أي: جلي واضح حيث عبدوا من لا يملك نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وتركوا الإخلاص للخالق الرازق المالك لكل الأمور.

﴿١٢-١٩﴾ ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر الله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد﴾ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾ إلى آخر القصة. يجز تعالي عن امتنانه على عبده الفاضل لقمان، بالحكمة، وهي العلم [بالحق] <sup>(٦)</sup> على وجهه وحكمته، فهي العلم بالأحكام، ومعرفة ما فيها من الأسرار والإحكام، فقد يكون الإنسان عالماً ولا يكون حكماً.

وأما الحكمة، فهي مستلزمة للعلم، بل وللعمل، ولهذا فسرت الحكمة بالعلم النافع والعمل الصالح.

ولما أعطاه الله هذه النعمة العظيمة، أمره أن يشكره على ما أعطاه، ليبارك له فيه، وليزيده من فضله، وأخبره أن شكر الشاكرين، يعود نفعه عليهم، وأن من كفر فلم يشكر الله، عاد وبال ذلك عليه. والله غني [عنه] <sup>(٧)</sup> حميد فيما يقدره ويقضيه على من خالف أمره، فغناه تعالى، من لوازم ذاته، وكونه حميداً في صفات كماله، حميداً في جميل صنعه، من لوازم ذاته، وكل واحد من الوصفين صفة كمال، واجتماع أحدهما إلى الآخر زيادة كمال إلى كمال.

واختلف المفسرون، هل كان لقمان نبياً، أو عبداً صالحاً؟ والله تعالى لم يذكر عنه إلا أنه آتاه الحكمة، وذكر بعض ما يدل على حكمته في وعظه لابنه، فذكر

(١) زيادة من: ب.

(٢) زيادة من: ب.

(٣) زيادة من: ب.

(٤) زيادة من: ب.

﴿٢٠ - ٢١﴾ ألم تر أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير \* وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير \* يمتن تعال على عباده بنعمه، ويدعوهم إلى شكرها ورؤيتها، وعدم الغفلة عنها فقال: ﴿ألم تر أن الله سخر بأبصاركم وقلوبكم﴾ أن الله سخر لكم ما في السموات من الشمس والقمر والنجوم، كلها مسخرات لنفع العباد.

﴿وما في الأرض﴾ من الحيوانات والأشجار والزرورع، والأهبار والمعادن ونحوها، كما قال تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾.

﴿وأسبغ عليكم﴾ أي: عممكم وغمركم نعمه الظاهرة والباطنة التي نعلم بها، والتي تحفى علينا، نعم الدنيا، ونعم الدين، حصول المنافع، ودفع المضار، فوظيفتكم أن تقوموا بشكر هذه النعم، بمحبة النعم والخضوع له، وصرفها في الاستعانة على طاعته، وأن لا يستعان بشيء منها على معصيته.

﴿ولكن مع توالي هذه النعم، من الناس من﴾ لم يشكرها، بل كفرها وكفر بمن أنعم بها، وجحد الحق الذي أنزل به كته وأرسل به رسله، فجعل ﴿يجادل في الله﴾ أي: يجادل عن الباطل ليحرض به الحق، ويدفع به ما جاء به الرسول من الأمر بعبادة الله وحده، وهذا المجادل على غير بصيرة، فليس جداله عن علم، فيتكبر وشأنه، ويسمح له في الكلام ﴿ولا هدى﴾ يقتدي به بالهتدين ﴿ولا كتاب منير﴾ غير مبين للحق فلا معقول ولا منقول ولا اقتداء بالهتدين<sup>(١)</sup> وإنما جداله في الله مبني

﴿فخور﴾ بقوله. ﴿واقصد في مشيك﴾ أي: امش متواضعاً مستكيناً، لا مثنى البطر والتكبر، ولا مثنى التماوت. ﴿واغضض من صوتك﴾ أدباً مع الناس ومع الله، ﴿إن أنكر الأصوات﴾ أي: أفضعها وأبشعها ﴿لصوت الحمير﴾ فلو كان في رفع الصوت البليغ فائدة ومصلحة، لما اختص بذلك الخمار، الذي قد علمت خسته وبلادته.

وهذه الوصايا التي وصى بها لقمان لابته، تجمع أمهات الحكم، وتستلزم ما لم يذكر منها، وكل وصية يقرن بها ما يدعو إلى فعلها إن كانت أمراً، وإلى تركها إن كانت نهيًا.

وهذا يدل على ما ذكرنا في تفسير الحكمة، أنها العلم بالأحكام وحكمها ومناسباتها، فأمره بأصل الدين، وهو التوحيد، ونهاه عن الشرك، وبيّن له الموجب لتركه، وأمره ببر الوالدين، وبيّن له السبب الموجب لبرهما، وأمره بشكره وشكرهما، ثم احترز بأن محل برهما وامتثال أوامرهما ما لم يأمرها بمعصية، ومع ذلك فلا يعقهما، بل يحسن إليهما، وإن كان لا يطيعهما إذا جاهدها على الشرك. وأمره بمراقبة الله، وخوفه القدوم عليه، وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الخير والشر إلا أتى بها.

ونهاه عن التكبر، وأمره بالتواضع، ونهاه عن البطر والأشر والفرح، وأمره بالسكون في الحركات والأصوات، ونهاه عن ضد ذلك.

وأمره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة، وبالصبر اللذين يسهل بهما كل أمر، كما قال تعالى: فحقيق بمن أوصى بهذه الوصايا، أن يكون مخصوصاً بالحكمة، مشهوراً بها. ولهذا من منة الله عليه وعلى سائر عباده، أن قصص عليهم من حكمته، ما يكون لهم به أسوة حسنة.

﴿يا بُنَيَّ إنها إن تك مثقال حبة من خردل﴾ التي هي أصغر الأشياء وأحقرها، ﴿فتكن في صخرة﴾ أي: في وسطها ﴿أو في السموات أو في الأرض﴾ في أي: جهة من جهاتهما ﴿يأت بها الله﴾ لسعة علمه، وتمام خبرته، وكمال قدرته، ولهذا قال: ﴿إن الله لطيف خبير﴾ أي: لطف في علمه وخبرته، حتى اطلع على البواطن والأسرار، وخفايا القفار والبحار.

والمقصود من هذا، الحث على مراقبة الله والعمل بطاعته مهما أمكن، والترهب من عمل القبيح، قل أو كثر.

﴿يا بُنَيَّ أقم الصلاة﴾ حثه عليها، وخصها لأنها أكبر العبادات البدنية، ﴿وأمر بالمعروف وانه عن المنكر﴾ وذلك يستلزم العلم بالمعروف ليأمر به، والعلم بالمنكر لينهى عنه.

والأمر بما لا يتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا به، من الرفق، والصبر، وقد صرح به في قوله: ﴿واصبر على ما أصابك﴾ ومن كونه فاعلاً لما يأمر به، كافاً لما ينهى عنه، فتضمن هذا، تكميل نفسه بفعل الخير وترك الشر، وتكميل غيره بذلك، بأمره ونهيه.

ولما علم أنه لا بد أن يتبلى إذا أمر ونهى، وأن في الأمر والنهي مشقة على النفوس، أمره بالصبر على ذلك، فقال: ﴿واصبر على ما أصابك إن ذلك﴾ الذي وعظ به لقمان ابنه ﴿من عزم الأمور﴾ أي: من الأمور التي يعزم عليها ويهتم بها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم.

﴿ولا تصغر خدك للناس﴾ أي: لا تبتغى وتعبس بوجهك للناس، تكبراً عليهم وتعاضلاً.

﴿ولا تمس في الأرض مرحاً﴾ أي: يطرأ، فخرأ بالنعم، ناسياً المنعم، معجباً بنفسك. ﴿إن الله لا يحب كل مختال<sup>(٢)</sup>﴾ في نفسه وهيئته وتعاضمه

(١) كذا في: ب، وزاد في: أ قوله تعالى: فخور.

(٢) زيادة من: ب.



وأفعاله، فإذا تصور العقل ذلك، عرف أن المثل الذي ضربه الله لكلامه، يدرك العباد شيئاً منه، وإلا، فالأمر أعظم وأجل .

ثم ذكر جلالة عزته وكمال حكمته فقال: ﴿إن الله عزيز حكيم﴾ أي: له العزة جميعاً، الذي ما في العالم العلوي والسفلي من القوة إلا منه، أعطاهما للخلق، فلا حول ولا قوة إلا به، وبعزته قهر الخلق كلهم وتصرف فيهم وديبرهم، وبحكمته خلق الخلق، والمقصود منه الحكمة، وكذلك الأمر والنهي وجد بالحكمة، وكانت غايته المقصودة الحكمة، فهو الحكيم في خلقه وأمره .

ثم ذكر عظمة قدرته وكمالها، وأنه لا يمكن أن يتصورها العقل، فقال:

﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ وهذا شيء يمجح العقول، إن خلق جميع الخلق - على كثرتهم وبعثهم بعد موتهم، بعد تفرقهم في لحظة واحدة - كخلقهم نفساً واحدة، فلا وجه لاستبعاد البعث والنشور والجزاء على الأعمال، إلا الجهل بعظمة الله وقوة قدرته .

ثم ذكر عموم سمعه لجميع المسموعات، وبصره لجميع المبصرات، فقال:

﴿٢٩ - ٣٠﴾ ﴿ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير﴾ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير. وهذا فيه أيضاً، انفراد بالتصرف والتدبير، وسعة تصرفه بإيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، أي: إدخال أحدهما على الآخر، فإذا دخل أحدهما ذهب الآخر .

وتسخيره للشمس والقمر، يجريان بتدبير ونظام، لم يختل منذ خلقهما،

﴿والبحر يملء من بعده سبعة أبحر﴾ مداداً يستمد بها، لتكسرت تلك الأقلام، ولفني ذلك المداد، ولم تنفذ كلمات الله تعالى، وهذا ليس بمبالغة لا حقيقة له، بل لما علم تبارك وتعالى أن العقول تنقاصر عن الإحاطة ببعض صفاته، وعلم تعالى أن معرفته لعباده أفضل نعمة أنعم بها عليهم، وأجل منقبة حصلوها، وهي لا تمكن على وجهها، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله، فنبههم تعالى تنبيهاً تستنير به قلوبهم، وتشرح له صدورهم، ويستدلون بما وصلوا إليه إلى ما لم يصلوا إليه، ويقولون كما قال أفضلهم وأعلمهم برية: «لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»، وإلا، فالأمر أجل من ذلك وأعظم .

وهذا التمثيل، من باب تقريب المعنى، الذي لا يطاق الوصول إليه إلا الأفهام والأذهان، وإلا فالأشجار، وإن تضاعفت على ما ذكر أضعافاً كثيرة، والبحور لو امتدت<sup>(١)</sup> بأضعاف مضاعفة، فإنه يتصور نفاذها وانقضاؤها، لكونها مخلوقة .

وأما كلام الله تعالى، فلا يتصور نفاذه، بل دلنا الدليل الشرعي والعقلي، على أنه لا نفاذ له ولا منتهى، وكل شيء ينتهي إلا الباري وصفاته ﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾ .

وإذا تصور العقل حقيقة أوليته تعالى وأخريته، وأنه كل ما فرضه الذهن من الأزمان السابقة، مهما تسلسل الفرض والتقدير، فهو تعالى قبل ذلك إلى غير نهاية، وأنه مهما فرضه الذهن والعقل، من الأزمان المتأخرة، وتسلسل الفرض والتقدير، وساعد على ذلك من ساعد بقلبه ولسانه، فالله تعالى بعد ذلك إلى غير غاية ولا نهاية .

والله في جميع الأوقات يحكم، ويتكلم، ويقول، ويفعل كيف أراد، وإذا أراد لا مانع له من شيء من أقواله



القدرية، وأحكامه الأمرية، وأحكامه الجزائية، فكلهم عبيد ممالك، مدبرون مسخرون، ليس لهم من الملك شيء، وأنه واسع الغنى، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه أحد من الخلق. ﴿ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون﴾ . وأن أعمال النبيين والصديقين والشهداء والصالحين لا تنفع الله شيئاً وإنما تنفع عامليها، والله غني عنهم وعن أعمالهم، ومن غناه، أن أغناهم وأقتاهم في دنياهم وأخراهم .

ثم أخبر تعالى عن سعة حمده، وأن حمده من لوازم ذاته، فلا يكون إلا حميداً من جميع الوجوه، فهو حميد في ذاته، وهو حميد في صفاته، فكل صفة من صفاته، يستحق عليها أكمل حمد وأتمه، لكونها صفات عظمة وكمال، وجميع ما فعله وخلقها يحمد عليه، وجميع ما أمر به ونهى عنه يحمد عليه، وجميع ما حكم به في العباد وبين العباد، في الدنيا والآخرة، يحمد عليه .

ثم أخبر عن سعة كلامه وعظمة قوله، بشرح يبلغ من القلوب كل مبلغ، وتنبه له العقول، وتحير فيه الأفتدة، وتسبيح في معرفته أولو الأبواب والبصائر، فقال: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾ يكتب بها

(١) في ب: مدت .